

ندوة القيم العُمانية ودور المواطن في التنمية

■ عبد الله بن علي العليان ■

عُقدت في العاصمة العُمانية مؤخراً ندوة (القيم العُمانية ودور المواطن في التنمية) من 4-6 يونيو 2011، وذلك بجامعة السلطان قابوس بالعاصمة مسقط، رعى هذه الندوة معالي الشيخ عبد الله بن علي القتبي مستشار الدولة، وبحضور عدد من المسؤولين والأكاديميين والمهتمين بقضايا الفكر والثقافة بسلطنة عُمان.

دور القيم وارتباطها بالتنمية

وقد ألقى معالي الشيخ عبد الله بن محمد السالمي وزير الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان كلمة في افتتاح الندوة، أكد فيها أن هذا العصر شهد - ولا يزال يشهد - تحولات جلية في

■ كاتب وباحث عُماني.

حياة الإنسان وعمله في البيئات الخاصة والعامة، سواء ما تعلق منها بنظام حياته أو بيئته الطبيعية والاجتماعية وصولاً إلى علاقة الإنسان ومستقبله بالتقنية والاقتصاد والبيئة، مبيّناً معاليه أنه - في ظل هذه التحوّلات - ترتبط مسألة القيم الحاكمة والموجهة بتلك المفاصل كلها في حياة الإنسان وعلائقه.

وأضاف معاليه: ويرد في سياق التطورات الحضارية لأية أمة ودولة سؤال عن خصوصيتها القيمية، وسط هذا الكل الشامل، وهو سؤال له علاقته بالهوية والانتماء، وقال: إننا نحن في السلطنة مجتمع عربي مسلم، ونملك تاريخاً ممتداً نتقاسمه مع المحيط الأقرب، ومع العالم الإسلامي الأوسع، ويعيش بيننا ومعنا غير العرب وغير المسلمين، وهذه خصوصية تجربتنا التاريخية، وخصوصية الاجتماع الإنساني والوطني المتنوع، وهو ما يترتب عليه من تنوع ثقافي وديني، وتنوع في المنظومة القيمية، مع القواسم المشتركة في المواطنة والقيم الإنسانية الرفيعة.

وأكد معاليه أن السلطنة أنجزت في العقود الأربعة الأخيرة بقيادة حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه - تجربة نموّية زاخرة، أعطت للتنوع والمشاركة بُعدهما الخاص، مع إطلاقات على التجارب العالمية الأخرى وتحولات العصر من نافذتين مهمتين: الإتقان في البناء، والتلاؤم مع متطلبات العصر ومنظومتنا القيمية، مع مزيد التطلع إلى التطوير والتحديث، عبر جهودنا في الداخل وجهود إخواننا العرب والمسلمين وأصدقائنا في العالم بأسره.

وأوضح معالي وزير الأوقاف العُماني أن انعقاد هذه الندوة حول (القيم العُمانية ودور المواطن في التنمية) يأتي تأكيداً على عنايتنا

بالمبحث القيمي بجانب عنايتنا بالمبحث الديني؛ فالجانبان لا انفصال بينهما، ونحن معنيون ومسؤولون - ضمن جهات أخرى في الحكومة - عن القيم والأخلاق، وارتباطها بالنهضة والتنمية، ليس من منطلق تبيان الأخلاق وتعليمها، ولكن من أجل ربط الدافعية بالقيم، وجعلها منطلقاً لمستقبل تنموي أفضل للبلاد والعباد.

الأخلاق الحميدة

إننا نحن في السلطنة
مجتمع عربي مسلم،
ونمتلك تاريخاً ممتداً
نتقاسمه مع المحيط
الأقرب، ومع العالم
الإسلامي الأوسع

كما ألقى الدكتور سالم بن هلال الخروصي - مستشار الوعظ والإرشاد بمكتب الوزير - كلمة الوزارة قائلاً فيها: إن الأخلاق الحميدة هي مصدر القيم الإنسانية الرفيعة وسبل الفطر الزكية السليمة ومبعث الأعراف المجتمعية الراقية، وهي كذلك منتقى العقل البشري الحصيف مما يستحسنه من أخلاق

ويتخيره من مبادئ؛ ليبذرهما في أرض الفطرة؛ لتنمو بعد ذلك قيمه وعاداته وتقاليده، ويأتي بعد ذلك الدين ليقر تلك القيم، ويؤكد عليها، وذلك شأن الدين الإسلامي عندما جاء منادياً بلوازم الفطرة من الأخلاق والقيم، فأقر ما كان سائداً منها موافقاً لشرعه، وحرّم ما كان مخالفاً منها لنزعة العقل ومنهج النقل، وأطرها بإطار الدين، فجعل الأخلاق الحميدة جزءاً من الدين، والتأدب بها تكليفاً ربانياً، وليس اجتهاداً بشرياً نحو خلق عام، وفرض من العبادات ما يضمن استمرارها ونماءها في محيط الحياة البشرية، وأعلى مكانها حين ربطها بالإيمان ورجح كفتها على الشعائر التعبدية وفي الحديث: «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً».

العدمية والتباس القيم

وتناول كلمة الضيوف معالي د. طارق متري - وزير الإعلام اللبناني السابق - فقال: لعل التفكير في أمر القيم في العالم المعاصر هو صنو التأمل في المعنى، لا سيما وأن فقدانه غالباً ما ينسب إلى ضياع القيم وإلى انطفاء شجاعة الوجود التي يندر بها. ويتلازم فقدان المعنى مع النواة العدمية لبعض مظاهر الثقافة وطرق العيش والسياسة المعاصرة. موضعاً: تعرفون أن العدمية ومعها التباس القيم كانت موضوعاً بارزاً في قلب البحث الفلسفي المعاصر، لا سيما وأن نيتشه أشار إلى دورها في صيرورة التاريخ، الذي اختصره بعبارته: «نزع القيمة عن أسمى القيم». وعلى منواله، رأى كثيرون أن العدمية تحول الكينونية إلى قيمة تبادلية. وشهدنا أيضاً ارتياباً متزايداً بالنسبوية الثقافية في مجال القيم، والتي تظهر بصورة إخضاع الأخلاق للإيديولوجية الذرائعية، أو في زعزعة الإيمان بالمكانة العليا بل المتعالية لقيم الحقيقة والوجود والجمال. ولا يخفى على أحد أن الأزمة التي تتسبب بها النسبوية تؤول إلى شكوك متعددة في القدرة على التلاقي حول توجهات إنسانية مشتركة.

مبيّناً: أكثر من ذلك، تتحول النسبوية من اعتراف بتنوع القيم المتصل بتنوع سياقاتها الثقافية وتنوع التجارب الإنسانية الفردية والجمعية، إلى تعارضات؛ بل مواجهات بين أصحاب القيم المختلفة، في أزمنة الضيق وفي أمكنة الصراع، ونرى المجتمعات التي تتصدع وحدتها لأسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية والتي يتحول فيها التنوع الديني إلى تنابز تفتقر تدريجياً إلى الشراكة في القيم التي هي أساس الرغبة في العيش معاً والقدرة على الاغتناء به. وأضاف: وفي العالم المتغير والمتميز بكثرة الابتكارات يصعب الحفاظ على

مشروع أخلاقي قوي يتعالى على الفروقات؛ ذلك أن العلامات الفارقة وتضخيمها إذا اقتضى الأمر، يجعل القيم قابلة للتداول والتبادل وكأنها سلع في سوق تتكيف مع الأذواق والاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية والأمزجة المتغيرة.

القيم وسلوكها الناظم

من جهته قال المكرم الشيخ أحمد بن عبد الله الفلاحي عضو مجلس الدولة - في كلمة المشاركين في الندوة من السلطنة - : إن الأخلاق هي السلك الناظم للعلاقة السليمة السوية بين الإنسان وأخيه الإنسان، يدخل فيها التعاون والمساندة والتناصح والسخاء، وغض النظر عن الهفوات، واعتقار الزلات والتسامح والعفو والوفاء والصدق، وخصال كثيرة يصعب حصرها تعارفت عليها البشرية منذ عهدها القديمة الأولى، وأجمعت على ضرورتها، يتفق على ذلك كل شعوب الأرض قاطبة، في الماضي البعيد وفي الحاضر الراهن؛ فقد نبهت لها حضارة بابل في العراق وهي من أقدم الحضارات، وحثّ عليها فراعنة مصر، ونادى بها حكماء الصين وفارس والهند، ونظر لها فلاسفة الإغريق، وتبناها بلغاء العرب الأقدمين، وظلّ الناس على مدى حقبهم وأجيالهم يستظلون بالأخلاق ويحتشدون تحت رايتها حتى يومنا الراهن.

وأضاف: وقد أعلن رسولنا الكريم ﷺ أنه بُعث ليتمم مكارم الأخلاق في أمته وفي الدنيا أجمعها؛ لتستقيم الأمور، وتصان حياة البشر من الانحراف. والعالم اليوم كله - من غير استثناء ومن أدنى الأرض إلى أقصاها - يلوذ بالأخلاق، ويرفع رايتها باعتبارها الركيزة الأقوى، والركن الأشد صلابة في بنية العلاقة بين الناس، والمعيار

الأكثر عدلاً وصدقاً الذي يجب الاحتكام إليه عندما تختلف المواقف وتتباين الرؤى، وكثيراً ما نسمع في وسائل الإعلام ونقرأ في الصحافة عن أخلاقيات السياسة وأخلاقيات الحرب وأخلاقيات المجتمع الدولي وأخلاقيات حقوق الإنسان. وحتى الدول منفردة كل منها يصرح ويعلن أن هذه هي أخلاقياتنا وتلك ليست من أخلاقياتنا إلى آخر ما هنالك من الأدبيات، وحتى اتحاد الكرة العالمي سمعنا مؤخراً أن لديه لجنة اسمها لجنة الأخلاق لها الحق في التحقيق والمساءلة.

وتضمنت أعمال الندوة العديد من البحوث والأوراق القيمة حول القيم والأخلاق، ودورها في ترسيخ مفاهيم التسامح، والتآلف، والوسطية، وقبول الآخر، والتفاهم معه، ونبذ التطرف والغلو، والتمسك بقيم الدين السمحة، وغيرها من القيم الفاضلة التي جاء بها الإسلام والأديان السماوية.

البحوث المقدمة

وقدّم الدكتور رضوان السيد بحثاً في هذه الندوة حمل عنوان (المفهوم الأخلاقي في العقل الإسلامي) أكد فيه أن: «المرحلة الجديدة ينبغي أن تشهد نهوضاً وتجديداً في الفكر الإسلامي، وفي القيم الإسلامية التي تشرمذت منظومتها، وغادرت رحمة القرآن وعدالته وكرامته وخيره العام».

وقدّم د. بدر اليعمدي بحثاً عن (الدعوى ودورها في دعم القيم الأخلاقية)، وقدم د. عبدالحميد مذكور بحثاً بعنوان (المفهوم الأخلاقي في القرآن والسنة)، كما قدّم وزير الإعلام اللبناني، د. طارق متري بحثاً عن (المواثيق الأخلاقية في الإعلام)، وقدّم د. صالح الفهدي بحثه

عن (المواثيق الأخلاقية في التعليم)، وشاركت د. سعاد الحكيم ببحث حمل عنوان (الدين والتقاليد والأخلاق)، كما قدّم د. عبد الله ولد أباه بحثاً بعنوان (نظرية العدالة في الإسلام والقيم السياسية المعاصرة)، وقدّم د. كمال عبد اللطيف ورقة بعنوان (الأخلاق ودورها في حياة الفرد)، وشارك د. محمد الهادي الجويني ببحث عن (القدوة وأثارها في السلوك الأخلاقي)، وأخيراً قدّم د. محمد حلمي عبد الوهاب بحثاً بعنوان (المصادر المباشرة للأخلاق الفردية والجماعية).

المرحلة الجديدة ينبغي أن تشهد نهوضاً وتجديداً في الفكر الإسلامي، وفي القيم الإسلامية التي تشرمذت منظومتها

وقدّمت في هذه الندوة تعقيبات على البحوث المقدمة من باحثين وأكاديميين وكتّاب من سلطنة عُمان وخارجها، أسهمت في إثراء هذه الندوة القيمة، كما حظيت الندوة باهتمام كبير من سلطنة عُمان رسمياً وشعبياً، ولاقت حضوراً لافتاً خلال انعقادها في العاصمة مسقط . وقد تضمنت التوصيات

العديد من الأفكار والتصورات التي تعزز القيم في المجتمع المسلم، ومنها: التأكيد على ضرورة اعتماد البناء الخُلقي على الدين وتراث الأمة الفكري مع انفتاحه على العالم الخارجي في إيجابياته المعرفية، وضرورة الحفاظ على المفاهيم الخُلقية وتفعيلها في مجالات الدين والتعليم والإعلام، والتعاون بين المؤسسات المعنية بذلك في شتى المجالات، وإعلاء القيم التنموية الضرورية، ومن بينها قيم الكفاءة والمشاركة الفعالة في الحياة العامة وخدمة المجتمع، وتقدير قيم العطاء والبذل والعمل التطوعي عبر الإشادة بالشباب المحافظ على هذه القيم وتكريمهم تشجيعاً لغيرهم على الاقتداء بهم. وأوصت الندوة أيضاً بمزيد من الاهتمام بالشباب وقيمه وطموحاته، مع ربط ذلك بالتطورات

الاقتصادية والاجتماعية التي تحدث على أرض الوطن تعميقاً لعناصر الانتماء، وضرورة إبراز الجهود التنموية التي قامت بها السلطنة مع ربطها بمستقبل الشباب، والاهتمام بدراسة التجربة التنموية العُمانية والقيم التي استندت إليها وقراءتها في ضوء القيم العربية والإسلامية الكبرى والتوعية بها في المؤسسات الدينية والإعلامية والتعليمية، والعمل على تضمين المناهج الدراسية والبرامج الدعوية والخطب ما تحمله الحضارة الإسلامية من قيم إيجابية، وربط ذلك بما يحدث في العالم المعاصر وتوجيه الأعمال الفنية والإعلامية لمراعاة هذه القيم، وخاصة ما يقدّم منها للطلبة والشباب.

كما أُقيمت على هامش الندوة جلسات حوارية تلفزيونية ضمت العديد من المفكرين والكتّاب من داخل السلطنة وخارجها نوقشت خلال هذه الحوارات قضايا فكرية وثقافية، ووقفت على ارتباطها بمسألة القيم، والدور الذي تلعبه منظومة القيم في التنمية والإبداع وتحريك الساكن الفكري والثقافي.